

# ‘Yandoto Academic Journal of Arabic Language and Literature

ISSN: 2714-4712 (Print & Open Access)  
<https://easpublisher.com/journal/yandoto/home>



خصائص فن الرثاء في قصيدتي "الهدية القلنسوية و تسليية الأحزان" للشيخ محمد قن بن علي (Qani)

إعداد:

عمرو جبريل مسكواني

AMRU JIBRIL MASUKWANI

و

الدكتور سليمان يوسف صادق

Dr. SULAIMAN YUSIF SADIQ

**The properties of the art of commiseration in the poems: Hadiyyat-Ul-Qalansawiyya and Tasliyat-Ul-Ahzani by Shiekh Muhammad Qani ibn Ali.**

This paper gives the brief history of Shiekh Muhammad Qani; his life, origin and educational background, together with highlighting some of his interesting poems. The paper also talks about the difference between commiseration and praise. It also analyzes the contest of two of his poems: (Hadiyyat-Ul-Qalansawiyya and Tasliyat-Ul-Ahzani by Shiekh Muhammad Qani). Also, the paper extracts from the poems, the properties of the art of commiseration.

## مستخلص البحث:

هذه الورقة عبارة عن موجز تاريخي عن الشيخ محمد قن، حياته ونشأته وتعلمه وتعليمه مع ذكر شئى من إنتاجاته العربية وخاصة في الشعر. وتواصل الحديث عن الفرق بين الرثاء والمدح. ثم تحليل ما في قصيدتي "الهدية القلنسوية" و"تسليية الأحزان" في الرثاء للشيخ محمد قن واستخراج ما فيهما من عناصر فن الرثاء. ثم النتائج.

## المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

و بعد:

فإن هذه المقالة عبارة عن الندوة الأولى المقدمة إلى كلية الدراسات العليا، قسم الدراسات العربية ، جامعة ولاية نصراوا، تكملة لمتطلبات الحصول على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية.

الرثاء فن قديم منذ الجاهلية، وقد اهتم الشعراء عبر العصور بهذا الفن كسائر فنون الشعر. ولهذا الاهتمام -في اعتقاد الباحث- صلة مباشرة بما يلعبه شعر الرثاء من تخليد مآثر المرثي، ومفاخر قبيلته مدى الدهر.

وتحمل هذه الورقة محورين. المحور الأول منها حياة الشيخ محمد قَن من ولادته، وتعلمه، وتعليمه، وإنتاجاته. ثم المحور الثاني فيه تعريف الرثاء لغةً واصطلاحاً وذكر خصائصه الفنية مع إمعان النظر فيه، واستخراج كيفية استخدام الشاعر لهذه الخصائص في قصيدتيه المذكورتين.

### المحور الأول: نبذة تاريخية عن حياة الشاعر

#### نسبه:

هو محمد قَن (Kani) بن محمد بن علي بن الحسن العُسوي، هو من مدينة عُسُو (Gusau) عاصمة ولاية زَمْفَرَا (Zamfara) حالياً بعد أن كانت تابعة لولاية سُكُوتُو (Sokoto) سابقاً.

وأجداده من الأسرة المالكة في مدن دَوْرَا (Daura)، وكَشِينَا (Katsina)، وَزَكْرَك (Zaria). عاش هناك أجداده زمناً قديماً ثم انتقلوا إلى عُسُو (Gusau) واستقروا حتى زمن ولادته.

#### ولادته:

ولد الشيخ محمد بن علي الملقب ب(قَن) ببلدة عُسُو (Gusau) في عام 1937م. نشأ عند والده حيث رباه تربية حسنة، وألحقه بمدرسة القرآن الكريم وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره، ولم يلبث طويلاً في هذه المدرسة حتى أرسله إلى قرية تسمى قَرْمَنْجِي (Karmanje) عند الشيخ يعقوب المقرئ (Maikaratu) حيث واصل الدراسة إلى أن ختم القرآن. ولما بدى للشيخ ذكاء محمد قَن علمه بعض الكتب الفقهية مثل كتاب القواعد، وكتاب الأخضري وغيرهما من الكتب البسيطة المشهورة آنذاك.

#### نشأته:

نشأ الشيخ محمد قَن في بيت اشتهر بالعلم والورع. ويعدّ والده الشيخ علي بن الحسن من كبار العلماء في المدينة، وقد اشتهر بالتواضع والزهد. إلا أن زهده لم يمنعه من أن يكسب عيشه، وكان لا ينظر إلى ما في أيدي الناس.

وأما والدته فقد منّ الله عليها بأن عاشت في بيت علم حتى وجد من أخواتها عالمات. وأخذ عنهن كثير من العلماء أمثال الشيخ مالم موسى مَادُغُو، وهو من شيوخ الطريقة التيجانية في عُسُو. وأخذ عن الشيخ مالم موسى عدد كبير من العلماء أمثال الشيخ بَلَارَبِي عُسُو صاحب الزاوية.

#### حياته:

ولحرصه الشديد على العلم وحبّه للعلماء انتقل إلى مدينة كُتُو برضى والده، ووصل إلى أستاذه الأول الذي يدعى (معلم الثاني) فمكث عنده بحارة فُوقَر نَائِيسَا (Kofar na'isa) فمكث عنده وأخذ منه مبادئ علم الفقه والتوحيد من كتاب العزية، ومنظومة القرطبي، ومنظومة ابن عاشر، ومنظومة ابن رشد. ثم كتب اللغة كتخميس الوسائل المتقبلة المشهورة بالعشرينيات للفاضل لافازي. كما كان النظام عند علمائنا في الدهاليز.

وبعد مدة من الزمن انتقل الشيخ محمد قَن إلى شيخ عثمان الملقب ب(القلنسوي) (Shehu maihula)، وقد اتخذ الشيخ محمد قَن شيخه الكبير ومربيه الجليل.<sup>1</sup>

تتلمذ الشيخ محمد قَن على يديه سنوات كثيرة يغترف من علمه و تصوفه الفياض. أخذ عنه العلوم الدينية واللغوية، كما درس عنده الشعر والعروض والقافية، وتبحّر في قرض الشعر باللغة العربية.<sup>2</sup> فكان يصف رحلات الشيخ التي صاحبه فيها للوعظ والإرشاد إلى القرى والبوادي التابعة لولاية كُتُو القديمة، وذلك قبل

إنشاء ولاية جِغَاوَا (Jigawa)، وإلى الولايات المجاورة مثل كَدُونَا (Kaduna) وبُوْثِي (Bauchi) وبِرْئُو (Borno).

وقد ذكر ذلك في إحدى قصائده واصفا رحلات الشيخ القلنسوي في قوله:

وفي أرض كنو زار شيخي بلادها \* زيارة من خير الأمور يقوم

بعانًا ونيجير ثم مالي بيمكو \* وشتى بقاع سار كالبدر يقدم

ويقول أيضا:

فتلك بلاد زارها بعد غيرها \* لتأسيس هذا الدين والدين أقوم

كما هو في نيجيريا زار أكثر ال \* بلاد بها لإخوة الدين يفهم<sup>3</sup>

وقد كان يقرض بعض القصائد بأمر من شيخه<sup>4</sup>

#### زوجته:

كان للشيخ محمد قن زوجة واحدة اسمها فاطمة المعروفة ب(بنت) وهي ابنة مالم بلاربي وهو من علماء مدينة الذين يدرسون في الدهاليز. وهي لا تزال على قيد الحياة.

#### أولاده:

وهب الله الشيخ محمد قن أولاداً ذكورا وإناثا، وهم كالاتي:

- 1- محمد السنوسي (الدكتور): وهو محاضر بكلية سعادة ريمي للتربية كنو.
- 2- زينب: وهي مدرسة في إحدى المدارس الثانوية في مدينة كنو.
- 3- مريم: وهي طبيبة. تعمل مع وزارة الصحة.
- 4- إبراهيم: وهو نجار.
- 5- عمر (الدكتور): وهو محاضر بكلية أمين كنو للشريعة والدراسات الإسلامية بكنو.
- 6- علي: وهو قاض من القضاة في ولاية كنو.
- 7- أمنة: وهي مدرسة أيضا.
- 8- عبد السلام: محاضر بكلية سعادة ريمي للتربية كنو.
- 9- سارة: مدرسة أيضا.
- 10- أبو بكر: مدرس ومنشئ مدرسة الشيخ محمد قن الإسلامية والثانوية بكنو.
- 11- حليلة السعدية: وهي صحافية.

#### إنتاجاته:

له إنتاجات دينية وأدبية كثيرة، يذكر الباحث منها:

- 1- **جوهرة الرثاء وشاشة أهل الصفا:** وهو ديوان في رثاء شيخه الكبير، الشيخ عثمان القلنسوي رحمه الله، نظمته على حروف المعجم، وفيه من الأبيات حوالي ألف وثلثمائة وثلاثة عشر بيتا (1313) بيتا وهو مطبوع.

- 2- هبة الرحيم في مرثية الشيخ إبراهيم: قرضاها الشيخ رثاء للشيخ إبراهيم إنياس وهي قصيدة رائية في مائة وستين (160) بيتا.
- 3- تسلية الأحران: قصيدة في رثاء الشيخ تيجاني بن عثمان زَنْعُونُ بَرَبِيرِي.
- 4- قصيدة الهدية القلنسوية: وهي عبارة عن رثاء للشيخين: الشيخ الحسن دمّ والشيخ ثاني كَأْفَنَغ، وهي على مائة و ثلاثين (130) بيتا.
- 5- قصيدة رثى بها الشيخ بَلَّارَبِي عُسُو، بأمر من شيخه القلنسوي ، وفيها (118) بيتا.
- 6- تعظيم المجامع: وهي قصيدة رثى بها المرحوم الشيخ رابع والد المرحوم الشيخ إسحاق رابع.
- 7- قصيدة إعانة البليد: وهي في مدح النبي ﷺ، وتقع في سبع وسبعين بيتا.
- 8- القصيدة في الترحيب بالشيخ الكامل بن سَالَم حفيد الشيخ إبراهيم إنياس.
- 9- قصيدة العقد الدرّي في نظم رحلة القلنسوية: وهي أرجوزة مزدوجة، وتتضمن ثلاث مائة وثلاثين بيتا (330). تحدث فيها الشاعر عن رحلات الشيخ القلنسوي في بلاد مختلفة.
- 10- قصيدة نظارة العبر في نزول الأدمي على سطح القمر: وهي قصيدة تناولت القضايا الاجتماعية، ينبّه المسلمين على جواز نزول الإنسان على سطح القمر شرعا في القرآن والحديث. يقول فيها:

لا شك أن نزول الأفل على القمر \* بل إن هذا عبرة لأولي الفكر

#### 11- قصيدة الزهرة المنضرة في مدح مدينة المنورة.

وله قصائد أخرى كثيرة في مختلف الأغراض والمناسبات. وخاصة مديح الرسول ﷺ حيث قال واحدة في ذكر أخلاق النبي ﷺ. وأخرى مسمطة، وله قصيدة في تاريخ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر إسلامه في مدح الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهي معارضة لقصيدة حافظ إبراهيم . وله قصيدة أيضا لمناسبة سدِّ بَعْوَدَا. ولتهنئة زواج بعض بنات الشيخ إبراهيم إنياس للسيد أدو طُنَّ إِيَا.

#### المحور الثاني: خصائص فن الرثاء في قصيدتي الشيخ محمد قن

##### أولاً: مفهوم الرثاء لغة

كثير من المعاجم والقواميس العربية لها مفهوم واحد لهذا الفن، لغةً واصطلاحاً. ولإثبات هذه الحقيقة المذكورة يستعرض فيما يلي بعض من تلك المعجم ليرى القارئ كيف عرفت اللفظ واعطتها سماتها الفنية. ومن تلك التعاريف:

"(رثى) الميت رثياً، ورثاءً، ومَرَثِيَةً: أي بكاه بعد موته، وعدد محاسنه، والجمع مرأثي"<sup>5</sup>.  
و"رثى فلان فلانا يرثيه إذا بكاه بعد موته. ورثيته: مدحته بعد الموت، وبكيتها وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعرا. وامرأة رثاءة، ورثاية: كثيرة الرثاء لبعْلِها أو لغيره ممن يكرم عندها.

منها أيضا:

"رثيت الميت من باب رمى و (مرثية) أيضا (رثوته) من باب (عدا) إذا بكيته و عدت محاسنه، وكذا إذا نظمت فيه شعرا، ربما قالوا: رثأت الميت بالهمزة على خلاف الأصل".<sup>6</sup>  
منها كذلك:

"ورثيت الميت رثيا، ورثاء، ورثاية، بكسرهما- ومرثاء، ومرثية، ورثوته/ بكيته، و عدت محاسنه".<sup>7</sup>

هذا بعض ما أورده بعض المعاجم العربية عن مفهوم اللغوي لهذا المصطلح، ونستخلص من التعاريف السابقة بعض الحقائق التي تحيط بفنّ الرثاء، منها ما يلي:

1- أن لفظة الرثاء في المدلول اللغوي تعني:

أ- البكاء على الميت.

ب- ذكر محاسنه.

ويظهر من هذا، حسب ما بدا للباحث من التعريفات السابقة اللغوية:

أن صورة الرثاء في بداية أمره لم تكن في صورة الشعر، بل اقتصر على البكاء العادي، والإشادة بمناقب الميت نثرا. وعلى هذا الضوء يعتقد الباحث أن الرثاء لم يأت في صورة الشعر إلا بعد أن مرّ بالصورة الأولى المذكورة. فالصورة الثانية إذن تطور من الصورة الأولى.

2- أن شعر الرثاء يقوم على عنصرين كبيرين:

الأول: البكاء على الميت.

الثاني: ذكر محاسنه. وسيأتي بيان عن هاتين الظاهرتين فيما بعد.

3- تدل تلك التعاريف السابقة على أن الفعل الماضي لفعل (رثى) يأتي في صيغ مختلفة إذا اتصل بضمير الرفع المتصل. ومن هذه الصيغ: رثيت- ورثوت- ورثأت- ولكن الأصل هو الأول لأن الكلمة على وزن (رمى)، وما ضيها هو (رميت) مع ضمير الرفع المتصل، فعلى هذا يكون ماضي (رثى) مع ذلك الضمير (رثيت).

4- يسمى شعر الرثاء (مرثية) وجمعها: مرثي.

5- لفظ الرثاء يكون مكسور الفاء على قياس الرماية. فيكون على هذا رثاء.

6- ويأتي مصدر الكلمة على صور متباينة، منها: رثيا- ورثاء- ورثاية- ومرثاة- ومرثية

7- ويأتي اسم الفاعل على وزن (الرامي): فيكون (الرائي)، وتأتي صورة مبالغة على وزن (فعال)=رثاء، ورثانة- أو: رثايا= ورثاية.

وهذه هي بعض الحقائق التي نستخرجها من تلك التعاريف اللغوية السابقة، والمهم منها هو أنها تعطينا مفهوم شعر الرثاء في بداية أمره، وبخاصة في العصر الجاهلي والإسلامي قبل اصطدام العرب بتيارات أجنبية تأثر الأدب العربي بها بصورة عامة.

**ثانيا: مفهوم الرثاء في الاصطلاح:**

وإذا تأمل الدارس مدلول الرثاء اصطلاحا يجد تقاربا وثيقا بين المدلولين: اللغوي والاصطلاحي، فقد عرفوه بأنه: "... بكاء الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، والإشارة بمناقبه وشمائله"<sup>8</sup>

الرثاء فنّ من فنون الشعر العربي منذ الجاهلية إلى يومنا هذا، فهو يشكل عنصراً عظيماً من عناصر الشعر العربي التي مازالت تدور أشعار العرب حولها.

وقد أخذ فنّ الرثاء أهمّ معالمه وخصائصه الفنيّة على أيدي شعراء العصور الأدبية الأولى مما يشكل له ظاهرة فنيّة متميزة تفرقة عن سائر الأغراض الشعرية الموزونة<sup>9 10 11</sup>

وقد حظي فنّ الرثاء باهتمام الشعراء عبر العصور أكثر مما حظي به كثير من فنون الشعر. ولهذا الاهتمام- في اعتقاد الباحث- صلة مباشرة بما يلعبه شعر الرثاء من جور تخليد مآثر المرثى، ومفاخر قبيلته مدى الدهر.

وقد ظلّ الرثاء يحمل هذا المدلول فترةً من الزمن، وذلك بدءاً من العصر الجاهلي إلى عصر صدر الإسلام. وفيما بعد عملت ظروف طارئة على حياة العرب في اتساع المدلول. وفيما يلي تفصيل لهذه الظاهرة:

#### مناسبة القصيدة:

إنّ لكل عمل فني مناسبة أو الداعي إلى إنتاج هذا العمل. لذلك فالشيخ محمد قني كان يقرض قصائده في مناسبات معينة.

القصيدة الأولى - الهدية الفنسية:

قالها الشيخ في ثلاث مناسبات، المناسبة الأولى لهذه القصيدة هي رثاء الشيخ الجليل الشيخ حسن دم السنغالي المتوفى في ذي الحجة سنة 1409هـ، وهو أحد خلفاء شيخ الفيضة النيجانية الشيخ إبراهيم إنياس. والمناسبة الثانية: هي بيان للسفر الذي قام به وفد من نيجيريا إلى السنغال للتعزية بموت الشيخ حسن دم، وكان الشاعر واحد من هذا الوفد.

أما المناسبة الثالثة: فهي عبارة عن رثاء في موت الشيخ المبجل المتفنن الشيخ محمد الثاني حسن كافنغا المتوفى يوم الاثنين من شوال سنة 1409هـ الموافق لشهر مايو سنة 1989م.

وعدد أبيات هذه القصيدة مائة وثلاثون بيتاً (130) حيث يقول:<sup>12</sup>

هَذَا ذَلِكَ اسْمُ الْقَصِيدَةِ كُلُّهَا مِائَةٌ \* لَهَا ثَلَاثُونَ بَيْتًا زَانَهَا سَطْرُ

والقصيدة الثانية: تسلية الأحران-

لما بلغ الشيخ إبراهيم إنياس<sup>13</sup> خبر وفاة الشيخ أحمد التجاني بن عثمان زَنْعُونَبْرِي (Zangon Barebari)، أرسل الشيخ إبراهيم رسالة إلى سمو أمير كَنُو الْحَاجْ أَدُو بَايْرُو يعزّي بها أمير كَنُو، حيث ذكر أنه لا يثق بالبقاء وهو سنة دين الله، أنه لن يخلد أحد. وقد ورد ذلك في القرآن الكريم عند قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِنْتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ. (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)).<sup>14</sup> لذلك قال ليس المعزّي والمعزّي بباقيان ولو عاشا إلى حين من الدهر. ويقول الشيخ إبراهيم في هذه الوثيقة التي أرسل بها إلى سمو أمير كَنُو الْحَاجْ أَدُو بَايْرُو:<sup>15</sup>

إِنَّا مُعْرُوكٌ لَا أَنَا عَلَى ثِقَةٍ \* مِنْ الْبَقَاءِ وَلَكِنْ سُنَّةَ الدِّينِ

فَلَا مُعْرَى بِيَاقٍ بَعْدَ مَيِّتِهِ \* وَلَا الْمُعْرَى وَلَوْ عَاشَا إِلَى حِينِ

فلما وصلت الرسالة ووجدها الشيخ محمد قني قام بقرض هذه القصيدة رثاء في حق الشيخ أحمد التجاني زَنْعُونَبْرِي رحمه الله تعالى. وعدد أبيات هذه القصيدة مائة واثنى عشر بيتاً (112) كما نصه الشيخ في القصيدة وفي هذا البيت:

وَأَبْيَاتُهَا بِيَقٌ كَضِعْفِ سِنِيهِ يَا \* إِلَاهِي إِرْحَمَنَّ الْكُلَّ لِلْكُلِّ هَادِيَا

مضمون القصيدتين:

### القصيدة الأولى:

افتتح الشيخ قصيدته الأولى "الهدية الفلنسوية" بما يفتتح به الشعراء القصيدة في العصر الإسلامي وهو ذكر الله تعالى أو الدعاء، خلاف ما كان عليه الأمر في العصر الجاهلي من افتتاح القصيدة بالبكاء وإظهار التحسر. ثم أخذ في الحديث عن وفاة الشيخ حسن دم السنغالي والدعاء له، واستمر بسرد ما حدث في رحلتهم من كُتُو إلى السنغال للتعزية، من ركوبهم الطائرة إلى الوصول. وجعل الطور الثالث منها أيضا رثاءً على وفاة الشيخ ثاني بن حسن كَافِنَغَا (Kafinga). واختتم القصيدة بالدعاء له وللأمة الإسلامية.

والقصيدة الثانية "تسليية الأحران" تتضمن رثاء الشيخ التجاني بن عثمان. تحدّث الشاعر عن حادثة وفاة هذا الشيخ، وتشجيع جنازته والحاضرين، وذكر أخلاقه التي امتاز بها، وإسهاماته في خدمة الإسلام والمسلمين، وتعزيته، والدعاء له.

### مطلعاً القصيدتين:

### القصيدة الأولى:

ففاتحة القصيدة أو الأبيات التي افتتح الشاعر قصيدته بها هي المطلع، فهي من الأعمدة التي تبنى عليها القصيدة، ويستحسن أن تكون جيدة ورائعة تجذب عقول القارئ والسامعين للإصغاء لها، وإن كانت عكس ذلك ينصرفون عنها.<sup>16 17</sup>

والقصيدة الأولى "الهدية الفلنسوية إلى الحضرة الكولخية" افتتحها الشاعر بتفويض الأمور إلى الله وقدرته وهو الفعّال لما يريد حيث يقول:<sup>18</sup>

اللهُ أَكْبَرُ مِنْهُ الْحُكْمُ وَالْقَدْرُ \* فَالْحُلُوُّ وَالْمَرُّ مِنْهُ وَهُوَ مُقْتَدِرٌ  
أَلَا لَهُ الْأَمْرُ طَرًّا كُلُّ مَا أُعْطِيَ \* لَهُ كَذَلِكَ لَدَيْهِ الْأَخْذُ وَالْقَهْرُ  
وَفِي التَّصَرُّفِ فَعَالٌ بِلاَ عَجْزٍ \* لِمَا يُرِيدُ لَدَيْهِ النَّشْرُ وَالْحَشْرُ  
إِذَا رَجَعْنَا إِلَيْهِ جَلَّ جَبْنَ عَرَى \* لَنَا حَدِيثٌ وَفَاةٌ ذِكْرُهُ خَطِرٌ  
وَفَاةٌ بَدْرُ الْعُلَا وَالْعِلْمُ شَمْسٌ هُدَى \* شَيْخُ الْمَعَارِفِ بَحْرٌ كُلُّهُ فَعْرٌ<sup>19</sup>

فهذا مطلع شيق جذاب، وهو مطلع إسلامي حيث بدأ بتنزيه الله تعالى وتفويض الأمور إليه، ثم الاسترجاء، وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى في القرآن حيث يقول: (وَلِنُبَلِّغَنَّكُمْ بَشِيرًا مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). (157)<sup>20</sup>

وبعد هذا الاسترجاء شرع الناظم يذكر ما حلّ بهم من المصيبة، واستمر بالبيان عن صفات الفقيه وأخلاقه، ودوره في نشر الدين الإسلامي وتعليمه، خلاف ما كان عليه القديم في افتتاح القصيدة.

أما القصيدة الثانية فقد افتتحها الشاعر بإظهار شدة حزنه وما أصابه من الفزع لفراقه الفقيه، حيث أصبح النهار لديه كالليل، لما يرى من الظلام في عينيه مع ما فيه من ضوء الشمس، والليل أصبح كالنهار سهرًا لأنه لا ينام فيه من شدة الحزن. فافتتح القصيدة بقوله:<sup>21</sup>

أخي لا تلمني من يغيّر حاليا \* عراني أمر مفزع فدهانيا

- تراكمت الأحزان واشتدّ واخزها \* تكدرّ منها كل ما في فوادي  
 نهاري كليي ظلمة ثم ليلتي \* كيومي سهرا والبلايا كما هيا

#### مقطعا القصيدتين:

والمقطع هو ما اختتم به القصيدة، وهو ركن مهم جداً بناء القصيدة، لذلك يستحسن أن يكون جميلاً ليؤثر في عاطفة المتلقي. والشيخ محمد اختتم القصيدتين بالدعاء كما افتتح بها، ويظهر ذلك في قوله: <sup>22</sup>

- فَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بَدَأٍ وَأَخْرُهُ \* فَالْيَاتِنَا مِنْ إِيَّاهِي الْفُحْخُ وَالظَّفْرُ  
 أَعْلَى صَلَاةٍ عَلَى خَيْرِ الْوَرَى وَعَلَى \* آلِ وَصَحْبٍ بِتَسْلِيمٍ لَهُ فَخْرُ  
 مَتَى أَشَادَ قَنِي الْعُسُوِي بِقَوْلَتِهِ \* اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْهُ الْحُكْمُ وَالْقَدْرُ  
 مهما ترتبت الألاء جارية \* لنا من الله فالرحمان مقدر

وفي القصيدة الثانية اختتم الشيخ قصيدته، ببيان إنه اختتم ما يريده من الرثاء بعون الله تعالى، فحمد الله في السر والعلن على ما وفقه له من نظم هذه القصيدة، ثم بيّن عدد أبيات القصيدة عن طريق استخدام الحساب الجمل الذي يستخدمه علماء الحساب كما سبق الذكر، وقال وأبياتها (بيق)، فلكل حرف من هذه الكلمة عدد معلوم، فالباء بمثابة اثنين، والياء بمثابة عشرة، والقاف بمثابة مائة عند الحسابيين، فالمجموع الكلي لهذه الكلمة هو (112). فيعني عدد أبيات هذه القصيدة هو مائة واثنان عشر بيتاً. وفيه ذكر سن الفقيه أشار إلى ذلك بقوله كضعف سنه، أي إذا قسّمت عدد الأبيات قسمين فواحد القسمين هو ما يساوي عدد سن الفقيه في الحياة. إذا فلفقيه ست وخمسون سنة (56). وسمى القصيدة بتسليية الأحران، ويرجوا من الله القبول والرضى، وصلى وسلم على خير الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وتابعيهم وكل من شكى أمره إلى الله، ومتى دعا محمد قن الغسوي بأن يحسن الله حاله. ذكر الشاعر ذلك في قوله: <sup>23</sup>

- هَذَا تَمَّ مَا أَعْنِي بَعُونَ إِلَهُنَا \* فَأشكره سرا وجهرا  
 محــــــــــــــــافــــــــــــــــيا  
 وأبياتنها بيق كضعف سنه يا \* إلهي ارحمنّ الكل للكل هادي  
 بتسليية الأحران لقبتّها وقد \* رجوت قبولا من إلهي راضي  
 أصلي صلاة قرّنت بسلامها \* على خير رسل جاء للكفر ماحيا  
 وآل وصحب كذا كل تابع \* متى ما دعادع إلى الله شاكي  
 متى ما قن الغسوي محمد قال يا \* إلهي أرجي أن تحسن  
 حالــــــــــــــــيا

#### الخصائص الفنية للرثاء:

أ- الندب/الندبة: عبارة عن "النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجبة، والألفاظ المحزنة التي تصدّع القلوب القاسية وتذوب العيون الجامدة" <sup>24</sup>



- ب- **التأبين:** "...الرتاء هو البكاء على الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته، والإشادة بمناقبه وشمانله..."<sup>25</sup>
- ت- **العزاء:** "الصبر على من فقدت. وعزيت فلانا أعزّيه تعزيةً أي أسيتّه وضربت له الأسي وأمتّه بالعزي فتعزّي تعزّيًا أي تصبّر تصبّرًا..."<sup>26</sup>
- ث- **التسليّة:** وهي عبارة عن إزالة الهم والمصاب وذلك بتهدئته عما أصابه من الحزن والأسى لأجل فقدان حبيب، أو واحد من أسرته.

#### الفرق بين الرثاء والمدح:

هناك تشابه بين الرثاء والمدح. وهذا التشابه، كما يبدو، هو ما دفع بعض النقاد القدامى منذ البداية إلى وضع حدّ بين الفنين. ومن أوائل الذين قاموا بهذه المحاولة قدامة بن جعفر،<sup>27</sup> وابن رشيق،<sup>28</sup> وقد اتفق الناقدان على تشخيص الفارق الكبير بين الفنين. يرى قدامة أنه:

"... ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه للهالك مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه وما أشبه ذلك"<sup>29</sup>

وأما ابن رشيق فإنه يرى:

"... (أنه) ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرتاء شيئاً يدل على أن المقصود به ميت مثل (كان) أو (عدمت به) كيت وكيت، وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت..."<sup>30</sup>

#### خصائص الرثاء الفنية في القصيدتين:

##### الندب/ الندبة:

والندبة من خصائص الرثاء الفنية، وهو البكاء على الفقيد مع إظهار الحزن واللوعة. وقد ظهرت هذه الخاصية في القصيدة الأولى للشيخ محمد قن في رثاء الشيخ ثاني حسن كافنغ حيث يقول:<sup>31</sup>

وفاة شيخ أقام الدين ماتمه \* تبكي السماء له فاليحزن الدهر

وفي البيت الثاني عشر من القصيدة الثانية إلى السادس عشر حيث يقول:

لتبك الدنيا مع ما حوته وما غدا \* يجاورها إذ ضرّها ما دهانيا

لناجيريا قل أنت لائقة بأن \* تديمي البكا نحو الذي كان جاريا

لتبك كئو وليبك كل ديارها \* على موت من أعلى علاها موافيا

على موت من بالحق حقق قدرها \* فصار سناها في المدائن زاهيا

فصار سناها يستضيئ بنوره \* ذوا الفوز حين الكل حازا المراميا

ذوا الفوز هاموا كلهم حين حققوا \* وفاتا له إذ قد دروا أنها هيا

دروا أن عقبي الكل لا بد أن ترى \* وإن طالت الأحوال جلّ إلهيا

فأمر الشاعر كلّ من في الدنيا عموماً بالبكاء لأهمية هذا الفقيد، واختص وطن الفقيد ثم بلده مدينة كئو لأهميته ودوره في العلم وتركية النفس.

وكذلك أيضا في البيت السادس والعشرين حيث شبه كُونَزَ طَنْ غُورَا (kwanar dangora) وهو بلد يقع في شارع من الشوارع الرئيسية فجعله إنسانا يجري دموعه في قوله:

فإن "كُونَزَ طَنْ غُورَ" تجري دموعها \* ولم لا وفيها قد أنلنا الدهاويا  
تقول لأبكي من بكى الأرض فقده \* سأبكيه طول الدهر إ كان عاليا

#### التأبين:

والتأبين هو الخاصية الثانية من خصائص شعر الرثاء، وهو ذكر محاسن الفقيد وأعماله الحميدة والبكاء عليه. ولا يبكيه لأنه فقده بل لأنه فقد من يتصف بهذه المحاسن كما سبق الحديث عن ذلك.

فالشاعر حاول في أن يستخدم هذه الخاصية في رثائه، وتأين العلماء والأدباء يهتم الشاعر فيها عادة بذكر فضائل الميت الدينية والعلمية، مع التلميح بدوره في نشر الدين، والإشادة بآثاره العلمية، والفنون التي تبحر فيها، وخدمته الدينية للناس، وذلك إذا كان المرثي عالما، أما إذا كان أدبيا فإنه يذكر ما قدم من الفن شعراً ونثراً.

و في القصيدة الأولى وصفه بأنه بدر العلى، وبحر المعارف، تقي زاهد، خادم الدين، بحر المعالم، متقن. يقول الشيخ في هذه الأبيات:<sup>32</sup>

وفاة بدر العلا والعلم شمس الهدى \* شيخ المعارف بحر كله قعر  
فضيلة الفيض سر من بواطنه \* من شأنه التقوى والزهد والذكر  
نور التخصص من برهام وهو حسن \* دم ديمة العلم من عرفانه المطر  
حصن المحاسن والإحسان وهو حسن \* دم من بذكر إلاه العرش يذكر  
تكفيه خدمته للدين منقبة \* عظمة ذكره لا زال يشتهر  
وقد أجاد كفاحا في حماية جن \* ب الأولياء فلدنيه الفتح والنصر  
وفي القصيدة الثانية أيضا يوجد فيها هذه الخاصية كقوله في الأبيات التالية:<sup>33</sup>  
وفاة إمام عالم فاق أمره \* إمام به الإسلام قد بات ناحيا  
إمام هدى الإسلام شاع وذاع من \* وثيق قواه إذ غدا فيه فانيا

#### العزاء:

من خصائص شعر الرثاء الفنية العزاء. وهي عند اللغويين، "العزاء الصبر على كل ما فقدت. وعزيت فلانا أعزبه تعزية أي أسيته وضربت له الأسى وأمرته بالعزاء فتعزى تعزياً أي تصبر تصبراً...."<sup>34</sup>

والمفهوم مما سبق أن العزاء عبارة عن اصبار النفس على كل ما فقده الإنسان، وعلى ما أصابه من المصائب. وتدرجياً اقتصر استعمال الكلمة على الصبر على مصيبة الموت فقط.<sup>35</sup>

ويتخذ الشاعر العزاء وسيلة في مرثيته لتقديم تعزيتة لنفسه وأولياء الميت وأقاربه ويصبرهم على ما أصابهم من فقده. ثم في نهاية المرثية يختم بالدعاء بأن يثيبهم الله على هذا الصبر.

وحاول الشاعر الشيخ محمد قن في أن يقدم تعزيتة إلى أقارب الفقيد في القصيدة الأولى عند قوله:<sup>36</sup>

نهدي التعازي لعبد الله سيدنا \* خليفة الفيض حبر عليم صبر  
لنحو أنجال فيض الله قاطبة \* كذا لكل تجاني ولا حصر  
لكل من ملة الإسلام ديدنه \* فلنحتسب ولنا في صبرنا الأجر

حاول الشيخ محمد قن في القصيدة الأولى أن يبين الغرض من القصيدة، وسبب سفرهم إلى الكولخ يجيب عن سائل يسأله عن ذلك الأمر المهم. يقول ذهبوا جميعهم لتعزية لفقد شيخ رفيع القدر والشأن. والسفر كان ليوم واحد فأخر ذي الحجة يوم الاثنين ذهاباً وإياباً ليصبروا أسرة الشيخ و تلامذته والأمة الإسلامية. وكان عددهم في هذه الطائرة مائة وعشرة نفر.

استمع إلى قول الشيخ محمد قن يقول: <sup>37</sup>

فخذ جوابي عما كان تسأله \* عن سيرنا وهو يوم واحد عطر  
ذا حجة يوم اثنين بأخره \* وعامه طيدش والسحب تبتدر  
تعزية كنت فيها وسط طائرة \* وطنية كلنا مائة لها عشر

واستمر الشيخ بالتعزية لأهميتها في هذا الميدان فيقول: <sup>38</sup>

إني أشارككم تعزية وكذا \* طيران نيجيريا فلنا بكم شكر

وقد ظهر التعزية في القصيدة الثانية حيث يعزي أهل الفقيد وجماعة نيجيريا عامة، وخص جماعة ولاية كَنُو بالتعزية لكون هذه المصيبة وقعت بهم أكثر من غيرهم. فيعزي الشيخ الجميع على هذه الداهية التي دعت الدهر. فبين بأن الشيخ تجاني بن عثمان انتقل إلى رحمة ربه، مضى بجسده وروحه لكنه باق بأعماله وخدمته للدين وللأمة الإسلامية، هذا أمر معلوم لدى الكل ولا ينساه، ثم استمر بذكر "كُونَرُ طَنُ غُورَا" (kwanar dangora) ما كانت عليه بأنها زرفت دموعاً كثيرة، واستمرت بالبكاء لمن بكى جميع من في الأرض لفقده. وتقول أيضاً لولا أن قضاء الله جعلها ممرا لما داس أحد من الناس على ظهرها بعد ذلك اليوم، لولا أنها تخاف من كل ما يخلّ بمروعها لمنعت أي سيارة من المرور عليها وإن كانت من مدينة زَارِيَا مع ما بين أهل كَنُو وأهل زَارِيَا من الصداقة، ذكر الشيخ ذلك في البيت الثالث والعشرين إلى البيت الثلاثين من القصيدة حيث يقول:

أعزيكم يا قوم من عظم ما جرى \* دهى الكل دهر جامد بان قاسيا  
أتاك من الرحمن رحمته العلى \* أيا نجل عثمان الذي كان ماضيا  
وما كان ماضيا لأن ادكاره \* وذكراه باق كلنا ليس ناسيا  
فإن "كونر طن غورا" تجري دموعها \* ولم لا وفيها قد أنلنا الدواهايا  
تقول لأبكي من بكى الأرض فقده \* سأبكيه طول الدهر إذ كان عاليا  
تقول ولولا أن قضى الله خالقي \* بكوني ممرا ليلتي ونهاريا  
لما داس ظهري بعد ذا اليوم واحد \* من الناس إذ أني أخاف المخازيا  
لمنعت ظهري كل سيارة أنت \* ولو قد أتتني من مدينة زاريا

### التسليّة:

التسليّة من سلاه وسلا عنه يسلو تسليّة، وأسلاه أي كشف عنه، والتسليّة هي الخاصية الرابعة من خصائص الرثاء الفنيّة.<sup>39</sup> وهي عبارة عن محاولة إزالة الهم والغم من القلب المحزون، وذلك بتهدئته عما أصابه من الحزن والأسى لأجل فقدان حبيب أو قريب.

وقد يصل الشاعر إلى هذه الغاية بوسائل مختلفة، إما بذكر الموت وأهواله، أو بأحوال الدنيا وتقلباتها من نعمة إلى نقمة، أو بذكر الحياة الطيبة لمن مات على الفطرة الإسلاميّة. ومن وسائل التسليّة أيضا ضرب الأمثال بالأمم الغابرة من الجبابرة الأثرياء والملوك ليخفف عنه الأحزان التي استولت عليه لموت قريب منه.

وقد حاول الشاعر حيث افتتح الرثاء بهذه الظاهرة، من البيت الأول ابتداءً بالتكبير وتفويض الأمور إلى الله تعالى. فالله هو المعطي والأخذ لكل ما أعطى. وهو فعال لما يريد بلا عجز، ثم استرجع امتثالا بقوله تعالى في كتابه العزيز: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.<sup>40</sup> سورة البقرة. الآية: (156) وكله في الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة:

اللهُ أَكْبَرُ مِنْهُ الْحُكْمُ وَالْقَدْرُ \* فَالْحُلُوُّ وَالْمُرُّ مِنْهُ وَهُوَ مُقْتَدِرُ  
أَلَا لَهُ الْأَمْرُ طَرًّا كُلُّ مَا أُعْطِيَ \* لَهُ كَذَلِكَ لَدَيْهِ الْأَخْذُ وَالْقَهْرُ  
وَفِي التَّصَرُّفِ فَعَالٌ بِلا عَجْزٍ \* لِمَا يُرِيدُ لَدَيْهِ النَّشْرُ وَالْحَشْرُ  
إِذَا رَجَعْنَا إِلَيْهِ جَلَّ حِينَ عَرَى \* لَنَا حَدِيثٌ وَقَاةٌ ذَكَرَهُ حَظْرُ

والشيخ. أيضا في القصيدة الثانية عرض أبياتا فيها هذه الخاصية، يسلي نفسه الحزينة على موت الشيخ الفقيه، ويصبرها بقاء الشيخ ربه، ومساهمته في خدمة الإسلام ورفع رايته، وعمله لأخرته متمسكا بشعائر الإسلام، تاركا آثارا كثيرة مفيدة التي لا تنساها التاريخ، وكلما ذكر الشيخ محمد قن موت الشيخ يشعر بالهم والحزن، إلا أنه يسليه اعتقاده أن الشيخ صار إلى رحمة ربه شهيدا، وهذا خير ما يتمناه العبد من ربه، وذلك في قوله:

مضى نجل عثمان التجاني مواجها \* لساحة رحمت اللطيف إلهيا  
فما نجل عثمان التجاني سوى أنه \* أنار منار الدين فاهتزّ ساهيا  
ترحلّ عنا رافعا دين ربه \* وخلف آثارا كراما عواليا  
متى رعت من تصوير وقعة موته \* تصبّرت من أن توفي مرافيا  
توفى شهيدا والشهادة خير ما \* تزود عبد صار بالله راضيا

### النتائج:

لقد توصل الباحثان إلى مجموعة من النتائج منها:

- 1- رسوخ الثقافة العربية في نيجيريا عامة وانتشارها في مدينة كنو خاصة في فترة مبكرة من تاريخ دولها في المدينة.

- 2- إن شعر الرثاء نال اهتماما بالغا عند الشعراء القدامى أكثر مما ناله سائر فنون الشعر، فيلعب دورا فعالا في تخليد الأمة ومفاخرها، وذكر محاسن بالفقيد وقبيلته.
- 3- قَدِمَ فن الرثاء حيث قطع مراحل عديدة منذ الجاهلية الأولى إلى الثانية وصولاً إلى العصور اللاحقة إلى هذا العصر.
- 4- انتشار فن الرثاء لدى شعراء مدينة كُتُو. بجميع خصائصه الفنية.
- 5- لم يكونوا شعراء مدينة كلاً ولا مقلدين بل إنهم تطوّروا فيه وأبدعوا نوعاً جديداً من هذا الفن (الرثاء) حيث لا يكتف الشاعر بذكر أخلاق الفقيد بل يضم الحديث عن ولادته، وعن علومه التي اشتهر فيها، وعن أولاده وأزواجه، وطلابه، ووصف جنازته، وذكر الحاضرين لتعزيتته.
- 6- إن للشيخ محمد قن مكانة رفيعة في فهم اللغة العربية الأمر الذي أتاح له المقدره في قرض الأشعار في مختلف الأغراض.

الهوامش:

- 1 مقابلة شفوية مع الشيخ محمد قن في بيته في حارة غولى أمام ابنه عمر يوم الخميس 2019/3/28م.
- 2 نفس المرجع والتاريخ
- 3 محمد قن (الشيخ) ديوان جوهرة الرثاء وشاشة أهل الصفا. (بدون معلومات النشر) ص: 42-44.
- 4 مقابلة شفوية مع الشيخ محمد قن في بيته في حارة غولى بحضرة ابن له يدعى عمر يوم الخميس 2019/3/28م.
- 5 - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور - ت 711هـ - لسان العرب ط (1) 1413 - 1993م. دار الكتب العلمية بمصر، ص: 468.
- 6 - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: لسان اللسان: تهذيب لسان العرب، مؤسسة دار العلوم لخدمة الكتاب الإسلامي ط 2 1992م - 1413هـ - دمشق ص: 186
- 7 - الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (المتوفى: 666هـ): مختار الصحاح، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4 1417هـ - 1999م. ص: 304.
- 8 - محمد عبد المنعم خفاجي (الدكتور): الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط (2) 197م. ص: 147. و قدامة بن جعفر: نقد الشعر: المرجع السابق. و ابن رشيق: العمدة: المرجع السابق: ص: 127
- 9 - د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط (6) 1965م، دار المعارف، ص: 207
- 10 - ابن رشيق: العمدة ج 2، المرجع السابق، ص: 130-133
- 11 - فن الرثاء - تأليف مجموعة من نخبة الأدباء تحت زعامة د. شوقي ضيف، إصدار دار المعارف بمصر 1955م، ص: 2-5
- 12 - محمد قن، قصيدة الهدية القلتسوية: البيت 126، ص: 12.
- 13 - هو الشيخ إبراهيم
- 14 - سورة الأنبياء: الآية: 34.
- 15 - إنيس، الشيخ إبراهيم، وثيقة الشيخ إبراهيم الكولخي في التعزية على وفاة الحاج التجاني بن عثمان، ص: 3.
- 16 - أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، ص: 296

- 17 - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ) كتاب العين تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال ج:1، ص: 155.
- 18 - محمد قن، قصيدة الهدية القلنسوية، البيت الأول إلى الخامس من القصيدة. الصفحة الأولى.
- 19 - قعر: قعر كل شيء: أقصاه ومبلغ أسفله. يقال: بئر قعرة وقصعة قعيرة: قد قعرت قعارة واقعرتها إقعارا.
- والقعر: قعر البئر والنهر وغيرهما، نهر قعير، أي عميق، وبئر قعيرة. وقد قالوا: امرأة قعرة: بعيدة الشهوة.
- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الأولى، 1987م، ج:2، ص:770.
- 20 - اسورة البقرة. الآية: 125-127
- 21 - محمد قن، قصيدة تسلية الأحران، البيت الأول إلى الخامس، ص:3.
- 22 - محمد قن، قصيدة الهدية القلنسوية، الأبيات المائة وسبع وعشرين إلى المائة والثلاثين.
- 23 - محمد قن، قصيدة تسلية الأحران، البيت الثامن والتسعين.
- 24 - د. شوقي ضيف وغيره: فن الرثاء، المرجع السابق، ص: 12.
- 25 - د. عبد العزيز بنوي: دراسات في الأدب الجاهلي، المرجع السابق، ص: 147.
- 26 - ابن منظور: لسان العرب، مادة (عزى).
- 27 - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، المرجع السابق، ص: 118.
- 28 - ابن رشيق: العمدة، ج 2، المرجع السابق، ص: 127.
- 29 - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، المرجع السابق، ص: 118.
- 30 - ابن رشيق: العمدة ج 2 المرجع السابق ص: 127.
- 31 - محمد قن، قصيدة تسلية الأحران، في البيت الواحد والتسعين من القصيدة.
- 32 - محمد قن، قصيدة الهدية القلنسوية، من البيت الخامس.
- 33 - محمد قن، قصيدة تسلية الأحران، في البيت الرابع.
- 34 - ابن منظور: لسان العرب: مادة (عزى)
- 35 - نفس المرجع.
- 36 - محمد قن، قصيدة الهدية القلنسوية، من البيت العشرين من القصيدة.
- 37 - محمد قن، قصيدة، المرجع السابق، من البيت التاسع والثلاثين.
- 38 - محمد قن، قصيدة الهدية القلنسوية، البيت اتلساع والثلاثين.
- 39 - لسان العرب: مادة سلى، ومختار الصحاح: مادة سلى.
- 40 - سورة البقرة. الآية: (156)